الدرس التطبيقي الثالث في القصر

الأستاذ علي زواري أحمد

أولا – تعريف القصر لغة واصطلاحا

القصر في اللغة: يأتي في اللغة بمعنى التخصيص، يقال لغة: قصر الشيء على كذا، إذا خصصه به، ولم يجاوز به إلى غيره. ويقال: قصر غلة بستانه على عياله، إذا جعلها خاصة لهم، وقصر الشيء على نفسه، إذا خص نفسه به، فلم يجعل لغيره منه شيئا.

ويأتي القصر أيضا بمعنى الحبس، يقال لغة: قصر نفسه على عبادة ربه، إذا حبسها على القيام بعبادة ربه، وقصر جنده على ممارسة التدريب العسكري في القلعة، إذا حبسهم وألزمهم بذلك فيها، وفي التنزيل: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَام، وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾، قال الفراء: قد قصرن أنفسهن على أزواجهن فلم يطمحن إلى غيرهم.

وفي الاصطلاح تخصيص شيء بشيء بعبارة كلامية تدل عليه. أو إثبات الحكم للمذكور في الكلام ونفيه عما عداه، ويقال في تعريفه أيضا: جعل شيء مقصورا على شيء آخر بواحد من طرق مخصوصة من طرق القول المفيد للقصر.

ثانيا – أركان القصر

مما سبق في التعريفات نستنتج أن للقصر أربعة أركان:

الركن الأول: المقصور، صفة كان أو موصوفا.

الركن الثاني: المقصور عليه، صفة كان أو موصوفا.

الركن الثالث: المقصور عنه، وهو المنفي المستبعد بالقصر.

الركن الرابع: القول المقصور به.

– ففي كلمة التوحيد: "لا إلاه إلا الله" وهي من القصر الحقيقي بقصر صفة على موصوف:

* المقصور: صفة الإلهية للمعبود بحق.
* المقصور عليه قصرا حقيقيا: الله عز وجل الموصوف بأنه الإله بحق.
* المقصور عنه: كل ما سوى الله عز وجل.
* القول المقصور به: النفي والاستثناء في العبارة: "لا.. إلا.. ".

– وفي عبارة: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ وهي من القصر الإضافي بقصر موصوف على صفة:

* المقصور: "محمد" الموصوف بأنه رسول.

* المقصور عليه قصرا إضافيا: صفة رسالته، المفهومة من "رسول".

* المقصور عنه قصرا إضافيا: صفة تبرئه من أن يكون عرضة للموت، لتصحيح تصور متوهمي ذلك فيه، ظانين ظنا توهميا أنه لا يموت.

* القول المقصور به: النفي والاستثناء في العبارة: "ما ... إلا ... ".

ثالثا – طرق القصر

طرق القصر والاختصاص كثيرة أوصلها السيوطي في كتابه "الإتقان" إلى أربعة عشر طريقا – منها التصريح بلفظ وحده أو لا غير أو فقط، أو بمادة الاختصاص، أو بمادة القصر، وكل هذه ليست من الطرق الاصطلاحية – أشهرها ما يلي:

1 – يكون القصر (بالنفي والاستثناء)، والمقصور عليه «في النفي والاستثناء» هو المذكور بعد أداة الاستثناء – نحو: وما توفيقي إلا بالله. ونحو: ما شوقي إلا شاعر أو: ما شاعر إلاَّ شوقي. كما يكون النفي بغير (ما) كقوله تعالى (إن هذا إلا ملك كريم). كما يكون الاستثناء بغير (إلا) نحو:

لم يبق سواك نلوذ به مما نخشاه من المحن

2 – يكون القصر (بإنَّما) – والمقصور عليه: مع (إنَّما) هو المذكور بعدها، ويكون مؤخرا في الجملة وجوباً، نحو: إنما الدنيا غُرور. ونحو: ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

وكقوله: إنما يشتري المحامدَ حُرٌّ طاب نفساً لهُنّ بالأثمانِ

3 – يكون القصر (بالعطف بلا – وبل – ولكن) نحو: الأرض متحركة لا ثابتة، وكقول الشاعر:

عُمرُ الفتى ذكرُه لا طولُ مدته وموتُهُ خزيه لا يومُهُ الدَّاني

فالمقصور عليه: مع (لا) العاطفة: هو المذكور قبلها والمُقابَل لما بعدها، نحو: الفخر بالعلم لا بالمال.

والمقصور عليه مع (بَلْ) أو (لكنْ) العاطفتين: هو المذكور ما بعدهما، نحو: ما الفخر بالمال بل بالعلم – ونحو: ما الفخر بالنسَّب لكن بالتقوى. وكقوله:

ما نال في دُنياهُ وان بُغيةً لكن أخو حزم يَجدّ ويَعمَل

4 – يكون القصر (بتقديم ما حقّه التأخير) والمقصور عليه: في (تقديم ماحقُّه التأخير) هو المذكور المتقدّم، نحو: ﴿إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين﴾ – (أي: نخصك بالعبادة والاستعانة) وكقولنا: على الله توكلنا، وكقول المُتنبِّي:

ومن البليَّة عذل من لا يرعوي عن غَيِّه وخطاب من لا يفهم

ملاحظات

1 – يشترط في كلٍّ من «بل – ولكن» أن تُسبق بنفي، أو: نهي وأن يكون المعطوف بهما مفرداً، وألاَّ تقترن (لكن) بالواو.

2 – يشترط في «لا» إفراد معطوفها، وان تُسبق بإثبات، وألاّ يكون ما بعدها داخلا في عموم ما قبلها.

3 – يكون للقصر (بإنما) مزيَّة على العطف، لأنها تفيد الاثبات للشيء، والنفي عن غيره دفعة واحدة، بخلاف العطف، فانه يفهم منه الاثبات أوّلا، ثم النفي ثانياً – أو عكسه.

4 – التقديم: يَدُلّ على القصر بطريق الذَّوق السليم، والفكر الصائب، بخلاف الثلاثة الباقية فتدل على القصر بالوضع اللغوي (الأدوات) .

5 – الأصلُ أن يتأخر المعمول عن عامله إلا لضرورة ومَن يتتبع أساليب البلغاء في تقديم ما حقُّه التأخير: يجد أنهم يريدون بذلك: التخصيص.

6 – ومن طرق القصر التي ليست مشهورة الاستعمال لفظ: وحده، أو: فقط. أو: لا غير، أو: ليس غير، أو: مادة الاختصاص، أو: مادة القصر، أو: توسط ضمير الفصل، أو: تعريف المسند إليه أو: تقديم المسند إليه على خبره الفعلي أحياناً، وغير ذلك وهذه الطرق خالية من اللطائف البلاغية.

7 – تختلف الطرق الأربعة المشهورة مع بعضها من أوجه كثيرة.

منها – أن (لا) العاطفة لا تجتمع مع النفي والاستثناء: لأن شرط المنفي بها لا يكون منفيا صريحاً قبلها بغيرها فلا تقول: ما عليّ إلا مجتهد لا متكاسل – ولذا عيب على الحريري قوله.

لعمرك ما الانسان إلا ابن يومه على ما تحلى يومه لا ابن أمسه

وتجتمع «لا» مع (انما) أو (التقديم) نحو إنما أنا مصري لا سوري، ونحو المجتهد أكرمت لا المتكاسل، لأن النفي فيهما غير مصرح به.

ومنها – أن الاصل في الحكم مع النفي والاستثناء: أن يكون مجهولا منكرا للمخاطب (أي شأنه أن يجهله المخاطب وينكره) بخلاف (إنما) لأن النفي مع الاستثناء لصراحته أقوى في التأكيد من (إنما) فينبغي أن يكون لشديد الانكار، ونحو: قولك (وقد رأيت شبحاً من بعد) ما هو إلا زيد: لمن اعتقد أنه غيره، ونحو: (إن أنتم إلا بشر مثلنا) لما كانوا مصرين على دعوى الرسالة مع زعم المكذبين امتناع الرسالة في البشر، رد المكذبون اصرارهم عليها بقولهم ذلك.

وقد ينزل المعلوم منزلة المجهول لغرض بلاغي، فيستعمل فيه النفي والاستثناء، نحو (وما محمد إلا رسول) فقد قصر الله محمدا على صفة الرسالة ونفي عنه أن يظن في أمره الخلود، فلا يموت أو يقتل.

وهذا معلوم للصحابة، لكن لاستعظامهم موته، لشدة حرصهم على بقائه صلى الله عليه وسلم نزلوا منزلة من لا يعلمه وقد ينزل المجهول منزلة المعلوم – نحو (إنما نحن مصلحون) لادعائهم أن كونهم مصلحين أمر ظاهر، ولهذا رد عليهم بقوله (ألا إنهم هم المفسدون) مؤكد بما ترى بالجملة – فالاستثناء لفوته يكون لرد شديد الانكار حقيقة – أو ادعاء، و «إنما» لضعفها تكون لرد الانكار في الجملة، حقيقة أو ادعاء – ويكون للقصر (بإنما) مزية على العطف لأنه يفهم منها الحكمان، أي الاثبات للمذكور، والنفي عما عداه معاً، بخلاف العطف لأنه يفهم منه أولا الاثبات ثم النفي، أو عكسه، نحو انما خليل فاهم – خليل فاهم لا حافظ – وأحسن مواقعها التعريض نحو (إنما يتذكر أولوا الألباب) .

واعلم أن «غير» كإلا: في إفادة القصرين، وفي امتناع اجتماعه مع لا العاطفة، فلا يقال: ما على غير شاعر لا منجم، وما شاعر غير على لا نصر.

رابعا – تقسيم القصر باعتبار حال المقصور

القصر ينقسم باعتبار الواقع والحقيقة إلى قسمين: حقيقي وإضافي، وكل منهما ينقسم باعتبار حال المقصور إلى قسمين:

1 – قصر موصوف على صفة بألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلا "في القصر الحقيقي" نحو: ما الله إلا كامل، وهذا التقسيم متعذر لا يكاد يوجد أو هو محال لتعذر الإحاطة بصفات الشيء – لأننا إذا قلنا: ما محمد إلا كاتب وأردنا القصر الحقيقي لزم ألا يتصف بالقيام والقعود، مع أنه لا بد أن يتصف بواحد منها ضرورة أن النقيضين لا يجتمعان، وأيضا يبعد أن يكون للذات صفة واحدة ليس له غيرها – فلا يمكن إثبات شيء منها ونفي ما عداه ولذا لم يقع في التنزيل، أو بألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى

مخصوصة، وإن أمكن أن يتجاوزها إلى صفات أخرى غير تلك الصفة الأخرى المخصوصة "في القصر الإضافي" نحو: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فالمقصود قصره على الرسالة بألا يتعداها إلى التباعد عن الموت الذي استعظموه، وهذا لا ينافي أنه متصف بالصحة واليقظة ونحوهما.

2 – قصر صفة على موصوف بألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلا "في القصر الحقيقي" نحو: لا يعلم الغيب إلا الله، أو بألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر مخصوص، وإن أمكن أن تتجاوزه إلى موصوف غير ذلك الموصوف الآخر "في القصر الإضافي" نحو: لا محترم إلا الصادق فالمقصود قصر الاحترام على الصادق دون الكاذب فلا يمنع هذا من احترام الأمين والمخلص لوطنه ونحو ذلك.

خامسا – تقسيم القصر باعتبار حال المخاطب

ينقسم القصر الإضافي1 باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام:

1 – قصر إفراد إذا اعتقد المخاطب الشركة بين شيئين فأكثر، وهذا شرط في قصر الموصوف على عدم تنافي الوصفين ليصح اعتقاد المخاطب اجتماعهما. نحو: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، خوطب به من يعتقد أن الله ثالث ثلاثة، بدليل قوله قبلها: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.

2 – قصر قلب إذا كان المخاطب يعتقد عكس الحكم فتقلب عليه اعتقاده، نحو: ما شاعر إلا شوقي، ردا على من زعم أن غيره أشعر منه.

3 – قصر تعيين إذا كان المخاطب مترددا في الحكم نحو: ما شاعر إلا شوقي ردا على من تردد في إثبات الشعر له ولبعض الشعراء الآخرين.

تنبيه

هذا التقسيم القصر الإضافي دون الحقيقي بنوعية؛ لأن العاقل لا يعتقد اتصاف أمر بجميع الصفات، ولا اتصافه بجميعها إلا واحدة، أو يتردد في هذا، وكيف يكون ذلك وفيها صفات متقابلة، فلا يصح أن يقصر الحكم على بعضها وينفي عن الباقي أفرادا أو قلبا أو تعيينا، وعلى هذا المنوال قصر الصفة على الموصوف.

سادسا: مواقع القصر

كما يكون القصر بين المبتدأ والخبر، يكون أيضا بين الفعل والفاعل، وبين الفاعل والمفاعيل بأنواعها إلا المفعول معه، وكذا بين جميع المعمولات، نحو: ما جاء إلا علي، وما نال عليا إلا التعب، وما أعطيت محمدا إلا دينارا، وما جاء علي إلا راكبا.

فإذا كان القصر: بما وإلا، وجب تقديم المقصور وتأخير المقصور عليه، مع إلا ونحوها من أدوات الاستثناء نحو: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، وهو قصر قلب لا إفراد إذا المعنى: أني لم أترك ما أمرتني أن أقوله لهم إلى خلافه، بدليل: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وليس المراد أني لم أزد على ما أمرتني به شيئا، إذ ليس الكلام في زيادة أو نقصان في التبليغ.

ويجوز قليلا تقديم المقصور عليه وأداة الاستثناء وهما بحالهما على المقصور، فالاختصاص في الذي يلي إلا، فالمقصود عليه هو الفاعل في الأول والمفعول في الثاني. نحو: ما كلم إلا محمد خالدا، وما كلم إلا محمد خالد، وعليه قوله:

فيا رب هل إلا بك النصر يرتجى ... عليهم وهل إلا عليك المعول

ووجه إفادة النفي والاستثناء القصر في كل ما تقدم أن النفي في الاستثناء المفرغ يتوجه إلى مقدر هو مستثنى منه، إذ إلا للإخراج، وهو يتطلب مخرجا منه، وذلك المقدر عام مناسب للمستثنى منه في جنسه وصفته ليتحقق الإخراج ففي نحو: ما فهم إلا محمد، يقدر ما فهم أحد، وفي نحو: ما كسوته إلا عباءة، ما كسوته لباسا، فإذا أخرج منه شيء جاء القصر ضرورة بقاء ما عدا ذلك الشيء على جهة الانتفاء. وإذا كان القصر بإنما أخر المقصور عليه، فيكون القيد الأخير بمنزلة الواقع بعد إلا، فيكون هو المقصور عليه نحو: إنما محمد قائم وإنما أثبته زجرا له. ولا يجوز تقيم المقصور عليه على غيره، لئلا يؤدي إلى الإلباس، إذ قولك: إنما كلم محمد عليا يفهم عنه عكس قولك: إنما كلم محمدًا علي. وإلا إلباس في النفي والاستثناء.

قال السكاكي: ومما ذكر تعثر على الفرق بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقوله إنما يخشى العلماء من عباد الله فإن الأول يقتضي قصر خشية الله على العلماء، والثاني يقتضي قصر خشية العلماء على الله.